

متحررة إلى درجة اللامبالاة والعدمية، متيقظة ناثرة كالبركان تعيش في مجتمع تحكمه علاقات اجتماعية متباينة متناحرة عاكسة لواقع جزائري متنوع، فجاءت شخصية نموذجية تحمل مواصفات المرأة التي تتعامل بداخلها مجموعة من المتناقضات التي تكسبها جمالية خاصة، تحكم على الموقف الواحد حكمين مختلفين فلم ترَ عيباً في حملها من البرجوازي على إثر ممارسة غير شرعية في حين تتكر هذا التصرف إذا صدر عن غيرها "لماذا أخي المحترم أحب هذه المرأة الرخيصة التي قبلت أن تأتي معي إلى هذا المكان القذر؟ لماذا تزوج إذا؟ لماذا جاء بها إلى هنا، حيث الأنظار تخذه بكل ما تملك من احتقار؟ لماذا لم تذهب بعيداً حيث لا يراها أحد؟ هذا في الأسرة أعرفنا وولينا بعد أربنا لو كنا في حاجة إلى ولي! معارفه ليست في خلاياه، إنها في جيبه... إنه تافه، حقير.... حقير" (8).

إن دليلة "بان الصبح" هي امرأة أكثر نضجاً وتطوراً ووعياً من نفيسة المستغلة في إطار علاقات ريفية، تنظر إلى المرأة نظرة خاصة، وترى في وجودها في العاصمة ضماناً للحياة السعيدة، فهل استطاعت هذه المدينة أن تقدم الحلول المناسبة والمرضية للمشاكل التي تعاني منها؟.

لقد جعل ابن هدوقة دليلة صورة عن نفيسة، إذ وضعها في علاقات هجينة لم تسمح لها بالانفلات والتحرر، فإذا المدينة هي المنقذ لنفيسة، فهي واقعياً مكان آخر كالريف تمارس فيه أشكالاً من الاستغلال بطرق مختلفة شكلاً ومختلفة مضموناً. ليصل الروائي إلى أن مشاكل المرأة لا تحل إلا في إطار مجتمع عادي، ولهذا كانت "دليلة" امرأة هامشية لم تستطع الوصول إلا أن مشاكلها مقرونة بمشاكل أخريات أكثر تأزماً وتعقيداً، لأن التطلع الفردي تطلع نهايته الفشل لأنه يهمل كل مجهود جماعي. وما يؤكد على هذه النظرة القاصرة، فإن دليلة ترى في الرجل منبع كل المشاكل وسبب كل المعاناة ومصدر كل إزعاج، فهي لا تفرق بين كونه مستغلاً وكونه مستغلاً. إنها لم تستطع التخلص من تفكيرها المتناقض والقاصر، فهي تحب كريمو حبا من طرف واحد، ابن الطبقة البورجوازية بعد أن أغراها بادعاءات التحرر والزواج، ولما تقع وتحمل منه، يتخلى عنها ويتنكر لها، ويقترح عليها الإجهاض، مما يقوي لديها النزوع الذاتي والمنفعة الشخصية.

وتتضح المرأة أكثر عند ابن هدوقة في روايته الموسومة "الجازية والدرائش" وقد استعمل لذلك الرموز بدرجة كبيرة "والترميز هو بحد ذاته